أسبقية الريادة في "قصيدة النثر" الفرنسية
"غياب القَصدِية أمام تفعيل الأُنموذج"

د / **حبيب بوهرور ، جامعة قطر**

ملخص

Believed by many researchers in French Literature talk that Charles Baudelaire is the first of the foundations of prose poem in the poetic French, he wrote the first Qsatdh « Poems of the Night » in 1857, but those who follow the history of this kind poetic new, he realizes that a poet other than the Baudelaire was founded by parameters The prose poem; that French poet Olozios Bertrand also fond of contemporary French critic named Susan Bernard.

يعتقد الكثير من النقاد والباحثين في فضاء الشعرية الفرنسية الحديثة أن شارل بودلير هو رائد قصيدة النثر في الشعرية الغربية بامتياز، فيؤرخون لأول قصائده النثرية بـ "قصائد ليلية" لعام 1857م، ولكن المتتّبع لتاريخ هذا الجنس الشعري المبتكر، يدرك أن شاعرا آخر غير بودلير[1] هو الذي أسّس المعالم الأولى لقصيدة النثر؛إنه الشاعر الفرنسي لويس برتران (*Louis*

1

Bertrand)أو ألويزيوس برتران*(*Aloysius Bertrand*)كما يحلو للناقدة والأديبة الفرنسية المعاصرة سوزان برنار *Susan Bernard* تسميته.

ولد برتران، لويس *Louis, Bertrand* في 20 أبريل 1807، في قرية سيفا (*Ceva*) في منطقة بيمون (*Piémont*)، حيث استقرت عائلته في مدينة ديجون الفرنسية(*Dijon*)، التحق لويس بالثانوية وعمره اثنتا عشرة سنة عام 1819، بعد تخرجه عيّن مديرا لجريدة "البروفاسيال" *Le provincial* عام 1828؛ "وهي الجريدة الوحيدة آنذاك في مدينة "ديجون" الفرنسية، لينتقل بعدها إلى جريدة "المشاهد *Le Spectateur* " عام 1830، توفى يوم 29 أبريل 1841، عن عمر لا يتجاوز الرابعة والثلاثين.

كتب برتران مجموعة شعرية واحدة بعنوان "جاسبير الليل"(*Gaspard de La Nuit*)، وكانت هذه المجموعة هي البداية التي انطلقت منها قصيدة النثر الفرنسية، و"قد لفتت هذه البداية الأنظار، وأحدثت الصدمة المتوقّعة، وفرضت نفسها على الحضور الشعري تدريجيا، وقد تصاعد حضورها على نحو خاص حين تأثر شارل بودلير بقصائدها، وأُعجب بتلك المحاولة التي كانت تمثل نقطة انطلاق للاتجاه الجديد في التشكيل الشعري بعيدا عن الأنماط التقليدية المألوفة في الشعرية الفرنسية والأوروبية معا، تماما كما فعل من جاء بعد بودلير من الشعراء الرمزيين والإحداثيين الكبار، أمثال رامبو *Jean.Nicolas Arthur Rimbaud* ، وملارميه *Stéphane Mallarmé* ولوتريامون *Lautréamont* "[2]

وقد خصّته الناقدة والباحثة الفرنسية "سوزان برنار" في كتابها "قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن؛" *le Poème en prose de Baudelaire BERNARD, Suzanne: ʃusqu'à nos jours* بمبحث الريادة والسبق، في مدخل الجزء الأول؛ "واعتبرته الرائد الأول لقصيدة النثر دون منازع، تقول: "في نهاية عام 1828م، أو بداية عام 1829م شهد "سانت بوف *Beuve–Charles-Augustin Sainte* (1804–1869) "**وأصدقاؤه، ذات يوم، ظهور شاب طويل نحيف، عمره واحد وعشرون عاما له سحنة ساخرة ولطيفة ومظهر خجول أقرب إلى البدائية، هذا الزائر الغريب الذي ظهر-كما يعتقدون- من إحدى حكايات "هوفمان" الشعبية (*les contes de hoffmann*)، لم يكن سوى "لويس برتران" الذي وصل لتوّه من مسقط رأسه "ديجون"..هكذا كان أول ظهور في النادي الرومانتيكي لمن أبدع لتوه قصيدة النثر، ظهور باهت يتلوه مصير بائس. لقد **سجل برتران نفسه على رأس هذه القائمة السوداء لملعوني قصيدة النثر التي سنشهد فيها عما قليل ظهور أسماء أكبر (رامبو، لوتريامون)، وقد عاقبهم القدر، فيما يبدو، لأنهم أرادوا الخروج عن طريق الكتابة المرسومة** "(3)

كتب برتران مجموعة شعرية واحدة خلال حياته وذلك بين الفترة الممتدة بين 1828م و 1841م تاريخ وفاته، لكن"كتابه"الأول والأخير الموسوم بـ: جاسبير الليل (*Gaspard de La Nuit*)لم ير النور إلاّ بعد وفاته، حيث أشرف على إصداره كل **من "فكتور بافي" و"دافيد دانغر"**

صديقان وفيان لم يدركا أنهما بتحقيق وصيته، يفتحان أفقا لم يحلم به الشعر من قبل، وذلك رغم أن الكتاب فشل فشلا تجاريا ذريعا وأهمله النقاد كليا، "ولاشك أن ألويزيوس برتران ما كان يستحق هذه المهانة، ..إنني أعتقد أن "جاسبار الليل" سيظل فصلا أبديا للتاريخ الأدبي وذلك لأن **ثمة شعرا مكتوبا بالنثر يبدأ في "جاسبار "ولأن "برتران" هو المبدع الحقيقي لقصيدة النثر باعتبارها نوعا أدبيا**".(4)

ينقسم "جاسبار الليل "إلى ستة أجزاء (أو ستة كتب حسب بارنار)هي: المدرسة الفلمنكية، باريس القديمة، الليل وخطواته، الوقائع، إسبانيا وإيطاليا، وسيلفي. إضافة إلى بعض قصائد منفصلة مقتطفة من مذكرات المؤلف. يتضمّن كل جزء أو كتاب مجموع قطع نثرية، كل قطعة مقسمة إلى أربع فقرات أو وحدات (شعرية) أو إلى خمس أو سبع، ويفصل بين الفقرة والأخرى أو الوحدة والأخرى بياض واسع وكأن كل فقرة مقطع شعري قائم بذاته، بل وكأن النص النثري هذا شعر، وهنا تكمن أهمية برتران في محاولة هدم القواعد الكلاسيكية للنثر والشعر وخلق نمط أدبي جديد ومبتكر يوحّد بين الجنسين، ويخلق أفقا للكتابة ما عرفه الأوّلون بهذه الجرأة في التشكيل: "ففي نثره يؤلف البياض وقفة صمت ناطقة، نشعر وكأننا وسط أشباح المقاصد، والاحتمالات والأفكار غير المعبّر عنها، ففي طباق النص يتكوّن في ذهننا نص تحتاني غير مكتوب، وما أن نوحّد المكتوب بحبر أسود والمفترض بحبر أبيض، حتى يبرز المعنى العام مكملا للنص، هذا

البياض الذي كان برتران مهوسا به سيطوره "مالارميه "*تطويرا راديكاليا في قصيدته"رمية نرد"كأن يستوجب على القارئ أن يستقرئ كلّ جملة بنفسه مستضيئا بالبياض ليبصر الكل.."[5]

وتتضح فرادة التشكيل الشعري عند برتران في قدرته على إعادة صياغته الواقع المعيش، صياغة شعرية متميزة يُضَمّنها الحلم والرؤيا، ويشكّلها تشكيلا متميزا يكاد يرتقي إلى درجة الاختلاف المؤسّس للثورة، "والواقع أن تجديد برتران الكبير يكمن في محاولته أن يحُل فكرةً تقنيةً محددةً، وشكلا راسخا تماما، محلّ فكرة الغنائية التلقائية التي تخلق الإيقاع بنفسها، بلا قواعد ولا منهج "[6]. ويتضح هذا بجلاء ووضوح في إعادة برتران قراءة كتاباته ومقالاته الصحفية في مرحلة ما من حياته ليبحث فيها عن اللحظة الشعرية الهاربة عبر الزمن، فيعيد تشكيل تلك اللحظة المبنية على وقائع حقيقية حدثت في زمن ما ومكان ما أيضا .

وقد أبرزت سوزان برنار قدرة الشاعر برتران التشكيلية من خلال عرضها لمثالين؛ الأول عبارة عن مقال نشره الشاعر بصفته صحفي في جريدة "لوسبكتاتور". والثاني عبارة عن أمثولة شعرية جديدة من حيث الصور التشكيلية المنبثقة من فرادة محدثة في الرسم بالكلمات كما هو جليّ في ديوانه "جاسبار الليل"، وذلك على النحو التالي :"...ثمة مثال سيبين لنا كيف سيستعيد برتران ويصلح من مقال حول أحداث آنية، نُشر عام 1830م في لوسبكتاتور، وهي جريدة كانت تصدر في "ديجون"؛ ليحوّله إلى قصيدة

يدرجها في جاسبار، ونقطة الانطلاق هي دائما حلم يقظة ونسيج رؤيا حول موضوع مستمد من الواقع، واقع اللحظة. والمقارنة الدقيقة بين النسختين من "أكتوبر "ستوضح لنا أن التقنية قد تغيرت في وقت تغيير مفهوم الموضوع نفسه "[7].

النص الأول هو عبارة عن مقال "لبرتران" نشر في جريدة "لوسبكتاتور" الديجونية* تحت عنوان "أكتوبر"، أما النص المقابل أو النص **المولّد والمبدَع** فهو يحمل العنوان نفسه أي "أكتوبر" أيضا وقد نشر في مختلف طبعات ديوان** "غاسبار الليل ".

أكتوبر

(مقال عام 1830)

لقد عاد السافواريون الصغار، وأصواتهم الشابة تقرع الآن صدى الصوت حينا كان السنونو يتبع الربيع، وهم يسبقون الشتاء، والمطر المتقطّع، الذي يضرب زجاج نوافذنا، وناقوس "سانت آن" الذي يرن في كآبة بالغة، والمتسولة التي تحرك رماد مدفأتها الصغيرة، والشبان المتعجلون المتدثرون بمعاطفهم، والفتاة العابرة التي ترتدي معطفها المبطن بالفراء، والعربة الثقيلة التي تهتز على ضربات سوط الحوذي، وأشجار كستناء متنزهاتها التي تتأوه، جرداء عارية، والريح التي تكنس من وجه الأرض الأوراق الميتة، وذلك الأفق الشاسع بلا لون، بلا أبعاد، الذي تستجديه، بلا جدوى النظرات العابسة من المتاريس، كل شيء

يدعونا إلى أن نأوي إلى محباتنا الأسرية، ونضيق دائرة ملاهينا. ورغم هذا، فها هي ليالي السهر بجوار النار تجئ، السهرات المسرحية، عيد القديس مارتان ومشاعله، عيد الميلاد وشموعه المضيئة، رأس السنة وأوراق الزينة، الملوك، وحلوى الفول، الكرنفال وصولجان مهرجيه، وأخيرا عيد الفصح. عندئذ، سيكون قليل من الرماد قد مسح الملل عن جباهنا، وسوف يُحيي السافواريون الصغار من أعلى التل النجع الذي ولدوا فيه.[8]

أكتوبر

(نص من "جاسبار الليل")

لقد عاد السافواريون الصغار، وصراخهم يستجوب الآن صدى حيِّنا، ومثلما يسبق السنونو الربيع، يسبقون الشتاء.

أكتوبر، بريد الشتاء هذا، يلطم أبواب منازلنا، ومطر متقطع يغمر زجاج النافذة المصدوم والريح تنثر أوراق "الدلب"الميتة في الداخل المنزوي.

هاهي سهرات العائلة تأتي في عذوبة بالغة، عندما يكون الخارج كله جليداً، طبقات من الجليد والضباب، وعندما تزهر ورود الياقوت على المدفأة في جو الصالون الدافئ.

هاهو عيد القديس مارتان يأتي بمشاعله، وعيد الميلاد وشموعه، رأس السنة وألعابها الملوك وحبات فولهم، الكرنفال وصولجان مهرجيه.

وأخيرا، عيد الفصح، بتراتيل الصباح المرحة، عيد الفصح الذي تتلقى الفتيات فيه القربان الأبيض والبيض الأحمر !

عندئذ، سيكون بعض الرماد قد مسح عن جباهنا ملل أشهر الشتاء الستة، وسيُحيي السافواريون الصغار النجع الذي ولدوا فيه من أعلى التل.[9]

جاء النص الأول أي النص الصحفي نصا وصفيا تقريريا لواقع عيني محض، لم يتجاوز خلاله أطر التخييل البسيطة والمألوفة في عوالم الكتابة التقريرية الصحفية، بل اكتفى فقط بعرض الصور كما تتراءى لقارئ الجريدة، قبل غيره، كونه مقيدا بمهمة إعلامية إخبارية وصفية، حتى ولو لاحظنا إشعاع البعد الرومانتيكي بين سطور المقال، رغم خطابية الجمل الطويلة واسترسالها في الوصف الحسي المباشر.

أما النص الثاني فقد جاء أكثر إيحائية؛ ابتعد خلالها برتران عن الأبعاد التصويرية الصحفية مثلما هو الأمر في النص الأول، فعمد إلى **تقسيم النص إلى مقاطع هي في الأصل عبارة عن مشاهد ولوحات فنية رائعة، تجنب خلالها البحث عن الروابط اللغوية والدلالية التي طالما بحث عنها أثناء تشكيل المقال الصحفي الأول (النص الأول).**

وتعلق برنار على مستوى الفرادة في التشكيل في النص الأمثولة الثاني عند برتران فتقول: "هاهنا، نرى إبداع برتران في الصميم وبراعته التقنية– التي ربما–لم تكن بلا مخاطر، فإذا ما كان التقسيم إلى مقاطع يسمح بمنح القصيدة بناء أكثر دقة وتوازنا أفضل فلا نستطيع أن نمنع أنفسنا من اكتشاف ميكانيكية معينة في تكوينٍ من هذا النمط، إذ يقطّع النص بطريقة

عشوائية إلى شرائح من نفس الأبعاد، ونشعر بقلق عندما نفكر أن نسقا كهذا يسمح لأي كاتب فقير الموهبة بالحصول على قصيدة انطلاقا من مقال في الجريدة ".10

أما شارل بودلير* فقد أقدم على محاكاة "برتران"، ابتدأ من ديوانه الأول "أزهار الشر"1857م، ثم مجموعة قصائد نثرية أخرى أكثر جرأة في التشكيل والرؤيا هي مجموعته الموسومة بسأم باريس أو سوداوية باريس وبالفرنسية *Le Spleen de Paris*[11]، بلغ عددها العشرين نشرت في مجلة"لابراس *La presse*" الباريسية عام1862م؛ **وهي اعتراف صريح بريادة صاحب "جاسبار الليل"في عالم قصيدة النثر**، "فما فعله برتران بالنسبة لباريس القديمة وديجون العتيقة، يريد بودلير أن يفعله لباريس عصره، فالشعر الحديث لا يمكن أن يكون بالفعل إلا شعراً مَدِينيًا وصادرا عن مخالطة المدن الكبرى التي شهد القرن التاسع عشر تطورها المخيف وهو يتسارع"[12].

بدأ بودلير بعد نشر هذه القصائد في محاولة لتدقيق اقتراحه الجمالي المتجسد في هيكل قصيدة النثر وتنفيذه من خلال محاكاة واقع المدينة في أهم ملامحها، التي تمثل معينا لا ينضب من النماذج والأحلام، لأن الحياة الباريسية حياة غنية بالموضوعات الشعرية الرائعة، "فمن أجل ترجمة حياة بشر القرن التاسع عشر وروحه في كل تعقيداتها، كان من الضروري استخدام شكل سلس، ومتنافر بما يكفي للتوافق مع الحركات الغنائية للروح ومع تموجات أحلام اليقظة وانتفاضات الوعي".[13]

إن تبني بودلير ومعه مجموعة الشعراء الرمزيين الذي اقتفوا أثره، وساروا على خطاه لنموذج قصيدة النثر وثورتهم على النمطية العروضية التقليدية المتمثلة في البحر السكندري، الذي ظل مسيطرا على الحركة الشعرية منذ عهد الرومان، ما هو إلا تعبير عن واقع فكري واجتماعي جديدين، ينطلق فيهما الشاعر من ذاته المبدعة الراغبة في التحديث نفورا من صلابته(الوزن والبحر)التي تُكره الشاعر على تضخيم عاطفته أو إضعافها، **لقد ظهرت هذه الرغبة الجامحة في الهدم والتأسيس عند بودلير في رسالته إلى مدير تحرير جريدة (الصحافة *(La presse)*يوم 26 أوت 1862م ، حيث عدّت الرسالة لاحقا عبارة عن بيان حداثة أول في الكتابة والتشكيل الشعري بامتياز**، وقد تصدرت هذه الرسالة – البيان – فيما بعد كل طبعات ديوانه سأم باريس (سوداوية باريس) *Le Spleen de Paris*.

"**صديقي العزيز،،،، أبعث إليك بعمل صغير يمكننا أن نقول، من دون أي إجحافٍ، لا رأس له ولا ذيل، بما أن كلَّ ما يحتوي عليه يُكوّن في الوقت ذاته، بالمناوبة وبالتبادل، رأساً وذيلاً. أتوسَّلُ إليك أن تقدّر كم هي مريحةٌ وعلى نحو مدهش هذه التركيبة؛ لك ولي وللقارئ. يمكننا أن نقطع أينما شئنا! أنا في هواجسي، وأنت في المخطوطة والقارئ في قراءته؛لم أكبح جموح القارئ إزاء سياق لامُنتَه لحَبكة غير ضرورية. اِنزعْ فَقرةً، وسَرَعان ما سينضم وبكل سهولة جزءا هذه الفانتازيا المتلوّية. قطّعها أوصالاً عدة، ترى أنّ لكلَّ وِصلةٍ وجوداً مستقلاً. وعلى أمل أن تنبض بعض هذه**

الأوصال حياةً بما يكفي لتسلّيك وتسرّكَ، فإنّي أسمح لنفسي بإهدائك الأفعى بأكملها.

....أريد أن أهمسَ لك بهذا الاعترافِ الصغيرِ: بعد تصفُّح كتابِ ألويزيوس برتران *Gaspard de la nuit* للمرّة العشرين على الأقل (كتاب تعرفه أنت وأنا وشلّة من الأصدقاء يمكن بكل تأكيد أن يُعتبرَ مشهوراً) جاءتني فكرةُ محاولةِ شيءٍ مماثلٍ، وتطبيق الطريقةِ التي استخدمَها في رسم الحياة القديمة العجيب الطرافة، على وصف الحياة الحديثة، أو بالأحرى حياةٍ حديثةٍ محدَّدة وأكثرَ تجريداً. مَن مِنّا لم يحلمْ، في أيّام الطموح، بمعجزةِ نثرٍ شعري، موسيقى من دونَ إيقاع أو قافيةٍ، فيه ما يكفي من المرونة والتقطّعِ حتّى يتكيّفَ مع حركاتِ النفس الغنائيّة، وتموّجات أحلام اليقظةِ، وانتفاضات الوعي. وُلدَ هذا المثالُ المستبدُّ الذهنِ، خصوصاً من الاختلاف إلى المدن الضّخمةِ ومن تقاطعِ علاقاتها التي لا تُحصى. وأنت، يا صديقي العزيزَ، ألم تحاولْ ترجمة صرخةِ الزجّاج الحادّة إلى أغنيةٍ، والتعبيرَ عن كلِّ الإيحاءات المحزنةِ التي تُرسلُها هذه الصرخةُ إلى السطوحِ عبرَ ضباباتِ الشارع العليا. لكنني أخشى أنّ غيرتي لم تجلب لي الحظّ، فسرعان ما بدأتُ بالعمل حتّى أدركت أني لست فقط في غاية البعد عن نموذجي الغامض والماهر الذي اقتديتُ به، بل كذلك طفقت أُؤلّف شيئاً (إن كان في إمكاننا تسمية هذا "شيئاً") في غاية الاختلاف.

مـــــــع مـــــــودّتي وإخلاصـــــــي شـــــــارل بـــــــودلير"[14]

أما النص الأصلي، فقد جاء فيه :

"Mon cher ami, je vous envoie un petit ouvrage dont on ne pourrait pas dire sans injustice, qu'il n'a ni queue ni tête, puisque tout, au contraire, y est à la fois tête et queue, alternativement et réciproquement. Considérez, je vous prie, quelles admirables commodités cette combinaison nous offre à tous, à vous, à moi et au lecteur .Nous pouvons couper où nous voulons, moi ma rêverie, vous le manuscrit, le lecteur sa lecture; car je ne suspends pas la volonté rétive de celui-ci au fil interminable d'une intrigue superflue .Enlevez une vertèbre, et les deux morceaux de cette tortueuse fantaisie se rejoindront sans peine .Hachez-la en nombreux fragments, et vous verrez que chacun peut exister à part .Dans l'espérance que quelques-uns de ces tronçons seront assez vivants pour vous plaire et vous amuser , j'ose vous dédier le serpent tout entier.

J'ai une petite confession à vous faire .C'est en feuilletant ,pour la vingtième fois au moins ,le fameux Gaspard de la Nuit , d'Aloysius Bertrand (un livre connu de vous, de moi et de quelques-uns de nos amis ,n'a-t-il pas tous les droits à être appelé fameux) que l'idée m'est venue de tenter quelque chose d'analogue, et d'appliquer à la description de la vie moderne, ou plutôt d'une vie moderne et plus abstraite, le procédé qu'il avait appliqué à la peinture de

la vie ancienne, si étrangement pittoresque.

Quel est celui de nous qui n'a pas, dans ses jours d'ambition, rêvé le miracle d'une prose poétique, musicale sans rythme et sans rime, assez souple et assez heurtée pour s'adapter aux mouvements lyriques de l'âme, aux ondulations de la rêverie, aux soubresauts de la conscience?

C'est surtout de la fréquentation des villes énormes ,c'est du croisement de leurs innombrables rapports que naît cet idéal obsédant .Vous-même, mon cher ami, n'avez-vous pas tenté de traduire en une chanson le cri strident du Vitrier, et d'exprimer dans une prose lyrique toutes les désolantes suggestions que ce cri envoie jusqu'aux mansardes, à travers les plus hautes brumes de la rue ?

Mais, pour dire le vrai, je crains que ma jalousie ne m'ait pas porté bonheur. Sitôt que j'eus commencé le travail, je m'aperçus que non seulement je restais bien loin de mon mystérieux et brillant modèle, mais encore que je faisais quelque chose (si cela peut s'appeler quelque chose) de singulièrement différent, accident dont tout autre que moi s'enorgueillirait sans doute, mais qui ne peut qu'humilier profondément un esprit qui regarde comme le plus grand honneur du poète d'accomplir juste ce qu'il a projeté de faire.

Votre bien affectionné ,C.B.[15"]

لقد كان بودلير يحلم بالنموذج الذي يؤسس- انطلاقا منه- أبعادا شعرية وتعبيرية تثور على السائد وترفض المألوف المحتذى، فجاءت

مجموعته"سأم باريس"أو"سوداوية باريس" عبارة عن بداية تأسيس لشعر الحداثة، فإذا كانت"أزهار الشر"فتحت الطريق أمام الشعر الحديث فإن "سأم باريس"(قصائد نثرية صغيرة) هو تجسيد شكلاني ورؤيوي للحداثة بمفهومها "البودليري".

يقول بودلير في قصيدة "الغريب" :

قل، أيها الإنسانُ اللغز، من تحب أكثر ؟ أباك، أمّك، أختك، أو أخاك ؟

لا أب لي ولا أم، لا أخت ولا أخ

أصدقاؤك ؟

هاأنت تستخدم قولا بقي معناه مجهولا لدى حتّى اليوم

وطنك ؟

إني أجهل في أي أرض يقع

الجمالُ ؟

لأحببتهُ تلقائيا، لو كان ربًّا وخالدًا

الذهب ؟

أكرهه كما تكرهون الله

آه من تحب إذن، يا أعجب الغرباء ؟

أحب الغيوم...الغيوم التي تعبر...هناك...هناك...تلك الغيوم الساحرة ![16]

« Qui aimes- tu le mieux, Homme énigmatique, dis ? ton père, ta mère, ta sœur ou ton frère ?

- *Je n'ai ni père, ni mère, ni sœur, ni frère .*
- *Tes amis ?*
- *Vous vous servez là d'une parole dont le sens m'est resté jusqu'à ce jour inconnu .*
- *Ta patrie ?*
- *J'ignore sous quelle latitude elle est située .*
- *La beauté ?*
- *Je l'aimerais volontiers , déesse et immortelle .*
- *L'or ?*
- *Je le hais comme vous haïssez Dieu .*
- *Eh ! qu'aimes-tu donc , extraordinaire étranger ?*
- *J'aime les nuages ... les nuages qui passent ... là-bas ... là-bas ... les merveilleux nuages ! »* [17]

وفي قصيدة " المرآة " نقرأ له :

رجلٌ مرعبٌ دخل وأخذ ينظرُ في المرآة

" لماذا تنظر إلى نفسك في المرآة، وأنت لا تقدر أن ترى صورتك إلاّ متقززا ؟!

فأجابني الرجلُ المرعب :

" إن الناس يا سيدي، بناء على مبادئ 1789 الخالدة متساوون في الحقوق، إذن، لي حقّ التمريّ، بلذة أو تقزز، فهذا أمرٌ ينظر فيه ضميري وحده "

باسم الحس السليم،

كنتُ على حقٍ، لكن من وجهة نظر القانون،

لم يكن هو على خطأ[18]

وجاء في النص الأصلي ما يلي :

Le miroir

Un homme épouvantable entre et se regarde dans la glace
« - Pourquoi vous regardez-vous au miroir , puisque vous ne pouvez vous y voir qu'avec déplaisir ? »
L'homme épouvantable me répond : « - Monsieur □ d'après les immortels principes de 89, tous les hommes sont égaux en droits ; donc je possède le droit de me mirer ; avec plaisir ou déplaisir , cela ne regarde que ma conscience . »
Au nom du bon sens , j'avais sans doute raison ; mais , au point de vue de la loi , il n'avait pas tort .[19]

أما قصيدة "أعراض الخراب " فقد توفرت على الرؤيا الفكرية العامة لقصيدة النثر سواء من حيث التشكيل الجملي المترابط ترابطا "ميتافزيقيا " أومن حيث تنامي مستويات الحلم السردي داخل متن القصيدة ذاته، الأمر الذي عجّل بغموضه واقترابه من الحلم الهيروغليفي حسب تعبير بودلير نفسه*، يقول :

أعراض الخراب.أبنيةُ هائلة، الواحد فوق الآخر، شقق، غرف، معابد، أروقة، سلالم، مصارين عوراء، مقصورات، فوانيس، ينابيع، وتماثيل . شقوق، تصدعات.

رطوبة صادرة من خزان ماء يقع بالقرب من السماء . فكيف نحذر الناس، والأمم ؟ . لنحذر همسا أكثرهم ذكاء في الأعالي.

متاهة، لم أستطع أبدا الخروج، أسكن دائما في مبنى سينهار، مبنى صنعه مرضى خفى.أخمن داخلي . لأسلّي نفسي، بما إذا كانت الكتل الهائلة من الحجارة، من الرخام، من التماثيل، من الجدران، التي ستتصادم بشكل تبادلي سيصيبها تلوث شديد من هذا الحشد من الأدمغة، من اللحم البشري والعظام الميتة المفتتة.[20]

لقد أراد بودلير أن يخلق شكلا جديدا للشعر، وهو الشاعر الذي ظل ينادي بشاعريته حتى وهو يكتب النثر، فنص مثل "أعراض الخراب" قادر أن يطرح أمام القارئ المذهول بهذا التشكيل الغريب نوعا من الغنائية الحديثة لأنه استطاع أن يضمّنه كافة الأصداء وكل تنافرات الأصوات التي من شأنها أن تعطي النص النثري نبرة حديثة، إذ "لم يكن بودلير –على أية حال–جاهلا بمخاطر شعر النثر التي تعتبر–على نفس مستوى الفانتازيا في التصوير الزيتي –أكثر خطورة لأنها أكثر سهولة وانفتاحا ".[21]

يتمظهر التشكيل الشعري الجديد عند بودلير في قدرته على صياغة القصيدة الشعرية من الأبعاد النثرية الكلاسيكية التي تعد الجملة الخطابية العادية ركيزتها الأساسية، فإذا كانت الجملة داخل بناء القصيدة هي عبارة عن وحدة شعورية مستقلة بذاتها، ومتعدية إلى غيرها من الجمل الشعرية الأخرى في الوقت نفسه، فإن بودلير قد لاحظ أنها يجب أن تولّد –لدى القارئ–مستوًى داخليا من التوافق النفسي والشعوري الذي نشأت لأجله القصيدة ذاتها، لهذا أضحت فكرة بعث الإيقاع الموسيقي من النص النثري فكرة لا يقتصر تحقيقها على الحبكة في رص ّ الكلمات جنبا إلى جنب، بل إن "مصطلح موسيقى الذي يستخدمه بودلير، لا يتعلق بموسيقى لفظية خالصة بل يتعلق –أيضا–بخصائص إيحاء وخلق خاصة بالشعر، وهي خصائص تختلف تماما عن الخصائص التعبيرية المطلوبة في النثر العادي بدون هذه الخصائص الشعرية، لن تستطيع اللغة أن تصبح تعويذة إيحائية، وحده بودلير وهو يتحرر من عبودية الإيقاع والقافية، يزمع تنويع طقوس هذه التعويذة بطريقة لا تربط الموسيقية الشعرية بوصفات شكلية خالصة، بل بخصائص أكثر داخلية وقدرة على إثارة انفعالات وإيحاءات أكثر تنوعا ".[22]

والدلالة التي يمكن أن نستخلصها من المثال الرائد هي أن البداية الجذرية رغم أهميتها، ورغم كل ما يأتي بعدها هو بعض وعودها الممكنة، فتظل بداية مهما كانت درجتها، وأن قيمتها لا تكتمل إلا بتحقق وعودها، وأن تحقق هذه الوعود يغطي على البداية نفسها، وهذا ما حدث مع "برتران" الذي

أصبح شبه نكرة في عالم قصيدة النثر رغم ريادته الموثّقة بنص مثل "جاسبار الليل"، ما كان يمكن لكل من بودلير أو رامبو أو مالارميه أو لوتر يامون أو غيرهم من الشعراء اللاحقين أن يمضوا أبعد من برتران لولا البداية التي ابتدأها والخطوة الجذرية الأولى التي خطاها. و لكن تلك البداية افتقدت بإقرار نقدي محترف لآلية القصدية التنظيرية التي عادة ما تبنى على تجارب في التشكيل سابقة للأثر المنتج ذاته ، و هو ما ينسحب على لويس برتران الذي أسس النمط المتغير في الكتابة والإبداع انطلاقا من روافد منتجة ذاتيا جراء الصراع الفكري مع راهنه الاجتماعي والديني في إطار تنافر البنيات داخل المجتمع الفرنسي في القرن التاسع عشر ، و هو أصلا ما غيب برتران عن الريادة و عن أقلام التنويه النقدي لأكثر من قرن ، فلولا سوزان برنار التي انتبهت إلى ديوانه فترة دراسة قصيدة النثر عند بودلير ، لكان لويس في عداد المنسيين و لاستحق شارل بودلير الريادة في التأسيس و التأصيل والإبداع معا بفرادة لا ينازعه فيها أحد . و رغم هذا فان المتعمق في واقع قصيدة النثر في الشعرية الفرنسية لا يمكنه _ وهو الناقد الموضوعي _ إلا أن يسند عملية تفعيل الجنس الأدبي الهجين إلى شارل بودلير ؛ فكل ما قام به لويس هو الإيماء والإشارة والتجريب، في حين أبسط أبجديات التأسيس لجنس أدبي معين يجب أن تبنى على ثلاثية الهدم والتأسيس والتشكيل بفرادة ،،، ولعل هذا ما فعله شارل.... .

الدكتور حبيب بوهرور، أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية

كلية الآداب و العلوم ، جامعة قطر من الجزائر

[1] ـ ينظـر: -Dictionnaire Encyclopédique de la littérature Française Edition Robert Laffont . S . A Paris 1997 . art :(Bertrand)
ـ و للمزيد عن برتران تراجع : برنـار، سوزان. قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن، ترجمـة راويـة صـادق، مراجعـة وتقـديم رفعـت سـلام، دار شـرقيات للنشـر والتوزيـع، القاهرة1998، ص ص 69، 70 وما بعدها.

[2] ـ عبد العزيز، موافي. قصيدة النثر من التأسيس إلى المرجعية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004ص99

** سانت بوف. هو شارل أوغيست، ناقد وشاعر وروائي فرنسي ولد في بولون عام 1804 ، وتوفى في باريس عام 1869 . ينظر:
- Dictionnaire encyclopédique de la littérature française . art :(St-Beuve)

[3] ـ برنار، سوزان. قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن، ج 1، ص .68

[4] ـ المرجع نفسه، ص 69.

* مالارميه . هو إستيفان مالارميه (Mallarmé Stéphane)، شاعر فرنسي ولد في 16 مارس 1842 بباريس، وتوفى في 9 سبتمبر 1898 بفال فين (Val vins) .ينظر:
-Dictionnaire Encyclopédique de la littérature française. art :(Mallarmé.)

[5] ـ الجنابي، عبد القادر. أنطولوجيا قصيدة النثر الفرنسية، ط2، دار النهار، بيروت، 2003، ص89

[6] ـ برنار، سوزان. قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن، ج 1، ص 77.

[7] ـ المرجع نفسه و الصفحة نفسها

* وقد أشارت إليه برنار ووتقته وفق سنة صدوره فقط دون ذكر التاريخ كاملا

** نشر في الطبعات الآتية.

- Gaspard De La Nuit ,1er، Pavie، Angers1842, p 175
- Gaspard De La Nuit ,ed Payot، 1925 p113
- Gaspard De La Nuit ,Mercure De France 1911 p 204
- Gaspard De La Nuit ,Œuvres Poétiques، Publies par Cargill Sprietsma, Slatkine ,Genève 1977 p 132

وقد اعتمدت على الطبعة الأخيرة مما ذكر أعلاه، لتوفرها دون الطبعات السابقة، أما الترجمة فقد اعتمدت ترجمة رَاوية صادق ضمن كتاب برنار، سوزان. قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن.

[8] برنار، سوزان. قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن ، ج1، ص78

[9] المرجع نفسه ، والصفحة نفسها

[10] بودلير شارل. Baudelaire Charles Pierre شاعر فرنسي ولد في باريس وتوفى فيها (9 أبريل 1821 ، 31 أوت 1867). يعدّ رائد قصيدة النثر بامتياز وصاحب دواوين شعرية نظم خلالها نماذج من قصائد النثر ، منها أزهار الشر، سوداوية باريس ينظر .

française ,Edition - Dictionnaire Encyclopédique de la littérature Robert Laffont, Paris,1999 .art : Baudelaire .Charles

[11] الترجمة الأولى(أي الترجمة المعنونة بسأم باريس) هي لراوية صادق ضمن كتاب قصيدة النثر لسوزان برنار، أما الثانية(أي سوداوية باريس) فهي لعبد القادر الجنابي في كتابه أنطولوجيا قصيدة النثر الفرنسية، وقد عثرت على ترجمة جديدة للديوان جاء العنوان على نحو الترجمة الأولى أي- سأم باريس- وهو من ترجمة الشاعر محمد أحمد حمد ومراجعة الدكتورة كامليا صبحي، صادر عن المجلس الأعلى للثقافة، ط2، بالقاهرة، 2005، وارتأيت أن أعتمد بعض نصوصه المترجمة إلى العربية لضرورات فنية ولغوية.

[12] - برنار، سوزان. قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن، ج1، ص 142

[13] المرجع نفسة ص 145

[14] - شارل بودلير. سأم باريس، (قصائد نثر قصيرة)، ليبريو عدد 179 ، باريس 2002 ، ص ص 5، 6 ترجمة الباحث. وعنوان المصدر باللغة الفرنسية هو.

.le Spleen de Paris , Librio - Baudelaire Charles ,n°179,paris,2002 ,pp 5-6

* اعتمدت اجتهاد الترجمة الشخصية لعدم توفري على نص مترجم كامل للرسالة ، ففي كتاب سوزان برنار المترجم من طرف الأستاذة راوية صادق، لم تقم بترجمة الرسالة كاملة وإنما اكتفت بعرض مقاطع فقط .

ينظر: برنار سوزان . قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن، ج1، ص 142 .

*أما ترجمة الدكتور محمد أحمد حمد الصادرة عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة (2005) فقد أسقط الرسالة تماما من مقدمة الديوان باعتبارها ليست قصيدة، وإنما هي رسالة نشرت في الصحافة (La presse). واعتقد أن إسقاطه للرسالة يرجع لاعتبارات فنية لم يصرّح بها المترجم في مقدمة الديوان .

[15] Baudelaire, Charles .Le Spleen de Paris , Petits poèmes en prose, Librio,Paris2002,p p 5,6

[16] - بودلير، شارل. سأم باريس، ترجمة محمد أحمد حمد، مراجعة الدكتورة كامليا صبحي، ط2، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2005. ص 11

- وينظر النص الأصلي في ديوان سأم باريس : -Baudelaire, Charles. Le spleen de Paris ,p7

[17] Baudelaire, Charles. Le Spleen de Paris, Librio n 179 ، p 7

[18] بودلير، شارل . سأم باريس، ص 72 ، ترجمة الباحث .

[19] Baudelaire, Charles .Le Spleen de Paris, p 72 .

* يقول بودلير. إنه حقا حلم هيروغليفي...حلم يمثل الجانب فوق الطبيعي للحياة، إنه قاموس لابد من دراسته، ولغة يمكن للحكماء الحصول على مفتاحها.

- ينظر: برنار، سوزان. قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن، ج 1، ص 197.

[20] - بودلير، شارل . أعراض الخراب، نقلا عن سوزان برنان، المرجع السابق ص، ص 178 ، 179.

- تشير برنار سوزان في هامش التعليق على النص السابق أن هذه القصيدة لم تنشر في ديوانه "سأم باريس" المتوفر لدينا ، وقد نقلته من دراسة:

-Nadar. Charles Baudelaire intime, Blaizot, 1911.

- ينظر برنار سوزان المرجع السابق، ص 197.

[21] - برنار، سوزان. المرجع نفسه، ص 157.

[22] - برنار، سوزان. قصيدة النثر من بودلير حتى الوقت الراهن، ج 1، ص، ص 161 ، 162.